من أهم ثمرات التربية الإسلامية

إن الهدف الرئيسي للتربية الإسلامية يتمثل في تحقيق المهمة التي خلق الله الإنسان لأدائها. وهذه المهمة هي إقامة دولة الله تعالى على الأرض عن طريق تنفيذ شريعته، وتخليصها مما قد يعلق بها من شوائب الأهواء وطفيليات الأغراض والآراء، حتى تنحصر عبودية الإنسان لله وحده فلا يكون لبشر على آخر سلطان أو صلاحية لأي تحكم أو طغيان. وبتعبير آخر: إن الهدف الأساسي للتربية الإسلامية هو الانضواء تحت لواءي عبودية الإنسان لله وعدالة الله في الأرض.

والمبتغى الأساسي من السير إلى تحقيق هذا الهدف هو أن نحصل على مرضاة الله تعالى والانعتاق من غضبه وعقابه.

هذا هو الهدف الكلي من العمل العظيم الذي شرفنا الله تعالى بالقيام به.

أما الأهداف الفرعية التي تنبثق عن هذا الهدف الكلي فهي تتكاثر وتتناقص حسب تكاثر العوائق التي تقوم في جنبات المجتمع للحيلولة دون تطبيق هذه المهمة التي خلق الله الإنسان من أجلها. إن القيام بعملية (التربية الدينية) يعني استهداف هذه العوائق كلها بالحرب والجهاد حتى يتذلل الطريق إلى الهدف الأساسي الكبير، ولا معنى أبداً لأن يقف أحدنا ينادي أو يدعو

إلى الانضواء تحت لواءي العبودية لله تعالى وحكمه، وبينه وبين ذلك أسوار من العوائق التي أقامها الطغيان أو حاكتها الشهوات والأهواء. وإننا لنذكر جميعاً القانون الأصولي الذي يقول (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

إن العوائق التي تقوم اليوم في وجه سلطان الإسلام وحكمه عوائق كثيرة مختلفة رسبت في مجتمعنا الإسلامي بسبب تآمر الكافرين على الإسلام من جهة، ونتيجة غطيط المسلمين في غفلتهم العميقة من جهة أخرى، والحديث عن تفصيل هذه العوائق ليطول ويحز في الفؤاد. وحسبي أن أذكر منها الكليات البالغة الخطورة التي أقيمت في طريق الإسلام لتقضي على أهم دعائمه، من عقيدة وأخلاق وحكم.

فللقضاء على العقيدة الإسلامية التي تقضي بألوهية الله وحده واجتماع المسلمين كلهم تحت لواء دينه، لا يفرقهم نسب ولا عرق ولا يتباهون بعضُهم على بعض بعصبية ولا لغة - ظهرت عقيدة التجزئة والانقسام... وإنها لسَرَطان خطير طالما عكفت الدول الكافرة، وفي مقدمتها الصهيونية العالمية متمثلة في المحافل الماسونية، على تحضيره وتجميع جراثيمه، لكي تفتك بجسم الوحدة الإسلامية التي طالما جمعت بلاد الإسلام وحفظتها موحدة مستظلة بحمى الإسلام وعقيدته.

وللقضاء على الأخلاق الإسلامية التي هي جزء لا يتجزأ من جملة أوامر الله تعالى لعباده، وجزء لا يتجزأ من مظاهر عبودية الإنسان لله تعالى - ظهرت فلسفات جديدة أقيمت عليها نظريات

الأخلاق، لكي ينفصل حبلها عن أصل الدين ومصدره فيصبح الناس أحراراً في وضع المعايير التي يشاؤونها للأخلاق ويملكون تحويرها وتغييرها متى شاؤوا، وإنها لريح سَمُوم جاءتنا من ديار الغرب بواسطة مبشريهم الذين لا يقيمون لدين من الأديان وزناً، وعن طريق عبيدهم المستخدَمين من صحافيين ومنتحلي الأقلام والآداب.

وللقضاء على شريعة الإسلام وحكمه حَمَل إلينا عبيد الطغاة والمتألهين في الأرض، على ظهورهم أسفاراً من تشريعات العبيد تزاحم وتتحدى تشريع الله وحكمه في مختلف مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية، وكان السبيل الوحيد الذي وصلت إلينا بواسطته بضاعة هؤلاء الناس هو كل من شعور النقص لدى المسلمين المبهورين بتغلب الغرب عليهم في زخرف الدنيا وزينتها، وغاشية الغفلة التي كانت تتمطى على عقول رجال الدعوة الإسلامية وألبابهم. ونسي أولئك قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٢].

كما نسي هؤلاء قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤-١٠٥].

ولا ريب أن شعورنا بهذه العوائق الخطيرة لكفيل بأن يكشف

لنا مخطط الأهداف الفرعية التي يجب أن نلاحظها ونهتم بها أثناء قيامنا بمهمة التربية الدينية.

إن هذه الأهداف تتلخص فيما يلي:

أولاً: العمل على إنبات العقيدة الإسلامية الصحيحة في أفئدة أبناء هذا الجيل وبناته، على أساس متين راسخ، بحيث يصبح لها سلطان قوي على حياتهم وتكون لها وحدها قيمة القيادة في توجيههم والتخطيط لأعمالهم بحيث تعيدهم إلى حمى الدستور الإلهي العظيم الذي أعلنه على البشر كلهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١].

وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

وذلك بدلاً من أن ينجذبوا إلى عصبية الجاهلية الأولى، وما كانت تتفاخر به من نسب أو عرق أو لغة. على أن هذا الهدف لا يتنافى مع ما ميّز الله به العرب من خصائص اللغة التي يتكلمون بها والمكان الذي يقيمون فيه، ليكون عبء الدعوة الإسلامية محمولاً على أكتافهم قبل غيرهم، فلقد شاء الله تعالى أن يشرّف العرب بلغة القرآن ويقيمهم من أرضه الواسعة في مهبط النبوات والرسالات. بيد أن هذا الشرف من شأنه أن يجعل أصحابه أقرب من غيرهم إلى العقوبة والسخط إن قصروا في أداء

واجبهم حيال المهمة التي كلفهم الله بها. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤].

ثانياً: ربط قانون الأخلاق بسلطان الدين وتقويمه في معايير الإسلام وتحديده بحدوده، لكي يكون للأخلاق معنى جوهري دائم لا يتميع مع الزمن وعواصف التقاليد.

وبيان ذلك أن الأخلاق الاجتماعية لا بد لها من سلطان يضع لها المعايير ويفرض على الناس أن يصبوا سلوكهم فيها، فإذا لم يكن هذا السلطان منبعثاً من الإسلام ومبادئه فإنه لا بد عندئذ أن يكون، كما قلنا، مزيجاً من إيحاء المفكرين والمصلحين وسطوة الحكام والمسيطرين، وحينئذ لا بد أن تتميز معايير الأخلاق بصفات سيئة خطيرة نعود فنذكرها مجملة فيما يلي:

١- تأثرها بدوافع البيئة والقيم الحضارية والمدنية الوافدة من الجهات الأجنبية..

٢- لا يمكن لهذه المعايير أن تجد القناعة الفكرية بها لدى جميع الأفراد وذلك بسبب تباين الأغراض الشخصية التي لها تأثير كبير ولا ريب في تلك المعايير وتوجيهها..

٣- تتجرد المعايير الأخلاقية حينئذ من قدسية الخلود والبقاء، إذ تكون عرضة للتناسخ بسبب تفاوت تفكير المفكرين وتطور الظروف الاجتماعية والسياسية، وهكذا تصبح الفضيلة الخلقية معنى وهمياً لا جوهر ذاتي له، ويغدو ثوباً فضفاضاً متنقلاً يكسى

به كثير من أنواع السلوك التي قد تكون في مجموعها متضاربة متنافرة.

٤- ومن شأن هذه المعايير الخلقية أن تتحطم السدود القائمة ما بينها وبين الشهوات والأهواء، فتنقلب الفضيلة الخلقية شيئاً فشيئاً إلى فريسة شهية بين مخالب الشهوات السافلة، حيث تبدأ هذه الأخيرة بتحقيق جميع رغائبها باسم الأخلاق نفسها.

وإن أول سبيل يجب علينا سلوكه في صدد تحقيق هذا الهدف هو العمل على إصلاح الخطأ الذي يضل فيه اليوم من يطلقون على الأخلاق الإسلامية اسم التقاليد الإسلامية. ونكرر هنا ما أوضحناه من أن هذه التسمية شاعت بين عامة الناس منذ أن أصبحت فلسفة الأخلاق ومعاييرها مرتبطة بهوى هؤلاء الناس وبمشيئة التيارات الغربية المداهمة لنا. إذ تشير هذه التسمية إلى أن قيمة الخلق الإسلامي ليست في أنه مبدأ إلهي يكمن فيه سر سعادة البشر، وإنما هي بسبب كونه عبارة عن عادات قديمة موروثة من الأجداد والآباء... ولا شك في أن النتيجة القطعية لهذا الفهم الخاطئ العجيب هي أن نضيق ذرعاً بهذا الميراث التقليدي القديم الذي يفرض نفسه علينا في عصر كل ما فيه متطور وجديد...

إن أهم ما يجب أن يظهر من آثار التربية الإسلامية بين صفوف الشبان والشابات، إصلاح هذا الفهم الخاطئ والتنبّه إلى الفرق الكبير بين «التقاليد» التي نسجتها البيئة عفواً، و«الخلق

الإسلامي» الذي أوحى به الله مع ما أوحى به من أسس الإيمان ودعائمه.

والواقع أن هذا الهدف الخطير هو أهم غرض تصوب إليه كل من انحرافات الصحافة والأقلام والاتجاهات الأدبية العامة سهام الفتك والتمزيق، فضلاً عن جهود أراذل المبشرين والمستشرقين. ولكن هذا يشعرنا بمزيد من الشرف والفخر حينما نجد أن الله تعالى قد وكل إلينا مهمة الدفاع عن أخلاق الإسلام أمام هجمات الزنادقة في الداخل والأعداء في الخارج! إن علينا في هذه الحال أن نسجد شكراً لله تعالى على أن شرفنا بهذا الجهاد ثم أن نقوم متكاتفين مخلصين بأعباء هذا الجهاد خير قيام.

وإذا كنا نرى اليوم كثيراً من دعاة الإسلام بيننا قد شغلهم أسباب الخلاف عن أسباب الاتفاق، فأقعدهم ذلك عن الوقوف في وجه مخربي المبادئ والأخلاق، فحسب الإسلام أن يجد في مدرسي التربية الدينية من التعاون والاتفاق والإخلاص ما يوقفهم صفاً واحداً في وجه هذا الغزو الفكري. وإن لهم من أسباب اتصالهم بطليعة هذا الجيل ما يجعلهم أهلاً للنجاح في جهادهم إن هم تسلحوا بالتعاون والإخلاص.

ثالثاً: العمل على صيرورة الحكم إلى الله وحده دون غيره من العبيد. وإن هذا الهدف يعتبر أجلى نتيجة من نتائج قولنا: لا إله إلا الله، فإن انحصار صلاحيات الحكم للإله وحده هو أبسط وأوضح حقوق الإله ومميزاته.

إن من أهم ما ينبغي أن يهدف إليه عمل التربية الإسلامية اليوم مُقاومةَ جميع مناهج الحكم التي لا نسبة لها إلى شريعة الإسلام، سواء كانت اقتصادية أم مدنية أم جنائية.. وذلك عن طريق عرض جوهر التشريع الإسلامي العظيم الذي تعبَّد الله به البشرية كلها، ولكن بتدرج وحكمة.

رابعاً: الكشف عن إعجاز القرآن من جديد أمام أفكار هذا الجيل. ذلك أن هذا الكتاب العظيم يحمل إلى كل جيل مظهراً جديداً من مظاهر الإعجاز بالإضافة إلى ما تجمعت فيه من مختلف وجوه الإعجاز خلال الأجيال والدهور. وَمَنْ أجدرُ مِن مدرسي التربية الإسلامية بحمل تبعات هذا الواجب الكبير، واجب الكشف عن إعجاز القرآن لعقل القرن العشرين. على أن يبتعدوا عن التكلف في هذا المجال، وألَّا يحمِّلوا نصوص القرآن ما لا تحمله، رغبة في مسابقة الآخرين في هذا المضمار، أو انتجاعاً لمغنم من رزق أو شهرة.

وإنه لجدير بنا أن نعلم أن كل فتح إسلامي في صفوف جيل هذا العصر يبدأ من هنا.. يبدأ من حسر هذا اللثام الذي كاد يغطي على منابع العظمة والإعجاز في القرآن منذ أن أخذ يتحول بين أيدي كثير من الناس إلى ألفاظ تستعمل لمجرد التمطيط والتغني بمقاطعها، أو لمجرد تخطيطها بأحرف كبيرة ووضعها في إطارات مزينة، ثم تعليقها على الجدران، ثم لا يكون شأنها إلا كما يكون من شأن صورة لأي منظر طبيعي أو غير طبيعي تزين بها جدران الغرف والمنازل.

أقول إن كل فتح إسلامي، يبدأ من حسر هذا اللثام.. ثم تحويل الأنظار إلى مكمن العظمة الإلهية والإعجاز الرباني خلال آياته، بل يجب أن أقرر في حزم أننا لا نملك أي سلاح في غمرة هذا الجهاد الذي شرفنا به القدر، إلا سلاح هذا الإعجاز الرباني الذي يلوح واضحاً في كلام الله عز وجل، إننا نملك أن نفتح به وحده الأفئدة المغلقة ونوقظ به المشاعر الميتة، ولعل هذه الحقيقة أبرز مظهر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب الجليل. ولن يحوجنا ذلك إلى أي تكلف أو تقعر أو اختلاق لأوهام نسدل عليها سمة العلم.

والواقع أنني لا أجد وسيلة لغرس الجزالة العربية في نفس الشاب العربي منذ سنيه الأولى أجدى من وسيلة أخذه بتلاوة القرآن وتمرينه على ترتيله كما أنزل، ومزاولته لهذه التلاوة وتكريره لها بصورة دائمة. وبذلك ينشأ الطفل وإن جرس الجزالة العربية ليطن في أذنه ووقع التقطيع العربي الموزون مندمج مع نفسه. وبقدر ما يوفق الطفل في سنيه الأولى إلى الإكثار من تلاوة القرآن وترتيله يكون انطباع الجزالة العربية في نفسه أقوى وأمكن.. وبقدر ما يخونه التوفيق في ذلك يكون عوج العامية ولكنتُها أعلق بنفسه وأمكن.

وإذا ما توافر هذا الأساس للشاب أصبح سبيل هضمه وتفهمه للقواعد العربية وآدابها سهلاً ميسراً، إذ هو يتلقى كل ذلك وكأنه توضيح لما كان قد انطبع مبهماً في نفسه، وإنك لتجده سرعان ما يتذوق قواعد الإعراب ويسير في طريق تطبيقها، لأنها جاءت

موافقة لما يستسيغه طبعه ولما درج عليه لسانه الذي لينه تكرار تلاوة القرآن، وتجده سرعان ما يتذوق روح التراكيب ويستشعر الفوارق الدقيقة ما بينها لما كان قد مر عليه من أمثال كثيرة من التراكيب. فكيف إذا تسنى للطالب إلى جانب مجرد التلاوة، التفسير الإجمالي لألفاظه والشرح الجيد لتراكيبه والتنبيه إلى الإشراق البلاغي في أسلوبه؟..

ولا بد لي أن أعود فأشير هنا إلى تآمر الكافرين على اللغة العربية عن طريق الوسيلتين التاليتين:

١- ما يدعى بمبدأ تبسيط اللغة العربية وما يتصل به من تطوير الكتابة والإملاء ونحو ذلك.

٢- الإمعان في العمل على إضعاف شأن التربية الإسلامية في المدرسة، وذلك عن طريق البخل عليها بالساعات الدرسية الكافية. والبخل بالاعتبار الكافي والضروري لها لدى نيل الشهادة.

والغاية من هذا التآمر إقامة حاجز حصين بين النشء ومظاهر إعجاز القرآن الذي يعتبر أعظم مفتاح لتمكين العقيدة الإسلامية في النفس. ومن هنا يتضح لنا جميعاً مدى أهمية هذا الهدف العظيم من التربية الإسلامية، كما يتضح لنا جميعاً مدى ضرورة بذل كل جهد ممكن في سبيل العناية بدروس القرآن الكريم تلاوة وتجويداً وتفسيراً وشرحاً[١].

❊ ❊ ❊

(١) انظر مزيداً من التفصيل لهذا الجانب في كتابي «تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث» عند الحديث عن وجوه أهمية التربية الإسلامية، ص٣٩ فما بعدها.

وبعد، فهذه جملة الأهداف الرئيسية التي استطعت أن أتصورها لدروس التربية الإسلامية، وأعود مرة أخرى فأقول: إن هذه الأهداف كلها إنما تتفرع عن الهدف العظيم الأول الذي يتصل بالغاية من وجودنا في هذا الكون، ألا وهو العمل على إقامة دولة الإسلام في الأرض متوخين في ذلك أداء واجب عبوديتنا لله تعالى وبلوغ مرضاته عز وجل والانعتاق عن عقوبته وغضبه.

ترى أيتاح لك أن تفرض على عقلك - وافق أم أبى - بأن العناية بهذه التربية تورط في الظلام أو «الظلامية»، وبأن إبعاد المجتمع عن ضيائها انغماس في النور أو الاستنارة؟ هنالك من يقرر متحدياً أن بالإمكان ذلك.